﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أدلّـةُ استحقاقِ الله للعبادةِ مِن نِعَمِهِ على عبادِه

بعدَ أنْ بيَّنَ في الآيةِ السّابقة خطابَ الرّسول ﷺ للنّاس بأمْرِهم بالدُّعاء والعبادة بقوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، وبيَّنَ مصيرَ الَّذين يستكبرون عن عبادته أتبَعَ ذلك ببيان ألوانٍ من النِّعَمِ الَّتي أنعم بها على عباده، وبيَّنَ بعضَ أدلّة استحقاق الله تعالى لتلك العبادة وذلك الدّعاء، فهو الَّذي سخَّرَ لهم المخلوقاتِ العظيمةَ؛ لتكون أسبابًا ضامنةً للحياة وديمومتِها، فجعل اللَّيلَ والنّهار دائبين؛ ليسكنوا فيه، وجعل النّهار ليبتغوا فيه من فضله، وهذا يقتضي الشّكرَ لله على ما أنعم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مطَّردٌ، يدلُّ على خلاف الاضطراب والحركة. وخلافُهما هو الاستقرارُ والثَّبات[1]. وورد في القرآن بأكثرَ من معنًى؛ فالواردُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ بمعنى: لتستقرّوا فيه من التّعب؛ "لأنَّ السُّكون ضدُّ الحركة. والحركة: مظنَّةُ التّعب؛ لأنَّ فيها انتقالاتٍ بالأعضاء وأعمالًا بالجوارح، والنَّهار ظرف ذلك. واللَّيلُ ظرف الرّاحة بها والسُّكون"[2]. ويأتي التّسكين بمعنى الاستئناس، والاطمئنان[3].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (سكن).
(3) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (سكن).

2) ﴿مُبْصِرًا﴾: جذر الكلمة هو (بصر)؛ والبصرُ حسُّ العين، والجمع أبصار، و"أبصره إذا أخبر بالذي وقعت رؤيته عليه"[1]. والبَصَر ومشتقّاته يُقال للجارحة النّاظرة؛ أي: البصرُ بالعين، وللقوّة الَّتي فيها، ويقال لقوَّة القلب المُدركة: البَصيرَةُ والبَصَر، ويُقال للحجّة، والبرهان، ويُطلق على: العلم بالشَّيء، والتأمُّلِ، والتَّعَرُّفِ، والتَّعريفِ، والإيضاح. وأصلُ ذلك كلِّه وضوحُ الشّيء[2]. ومعنى ﴿مُبْصِرًا﴾ في الآية: مضيئًا، يُبصرُ فيه[3].

3) ﴿فَضْلٍ﴾: (فضل) أصلٌ صحيح يدلّ على زيادةٍ في شيء. من ذلك الفضل: الخيرُ، والزّيادة عن الاقتصار. والإفضال: الإحسان[4]. ومعناها المحوريُّ "زيادةٌ من مادَّةِ الشّيء متميِّزةٌ عنه"[5]. ومعناها في الآية: ما حَبا اللّه تعالى النّاسَ من الخيراتِ والنِّعَم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعْمتا اللَّيلِ والنَّهارِ آيتان من آياتِ الله

في الآيةِ بيانٌ لنعمتي اللّيل والنّهار اللَّتَينِ أنعَمَ بهما اللّه تعالى على النّاس؛ أي: إنَّ اللّه تعالى هو وحده الَّذي جعَلَ لكم – أيُّها النّاسُ – اللَّيلَ لتسكنوا فيه، وتستريحوا من عَناءِ العمل بالنّهار، وهيَّأَهُ لهذه الاستراحة؛ بأنْ جعَلَهُ مظلمًا ساكنًا، وجعل لكم بقدرته وفضله النّهارَ مبصرًا؛ أي: جعَلَهُ مضيئًا مسفرًا، بحيث تبصرون فيه ما تريدون إبصارَه من الأشياء المتنوّعة. وهذه من أعظم الآيات الَّتي لا يمكن أن تكون إلّا من خالقٍ عظيم.

ثمَّ بيَّنَ موقفَ أكثرِ النّاس من نعم اللّه تعالى عليهم؛ فاللّه

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 62، وابن سيدة، المُحكم: (بصر).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والدّامغانيّ، قاموس القرآن: (بصر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (بصر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فضل).

تعالى صاحب فضل عظيم على النّاس جميعًا، ولكنَّ أكثرهم لا يشكرونه على ما أنعَمَ وتفضَّلَ، لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء والشَّهوات عليهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الدَّلالة على قدرةِ الله ونِعَمِهِ الكبرى على النّاس

جملةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ استئنافيَّةٌ بيانيَّةٌ ناشئةٌ عن تقوية الأمر بدعائه، وهذا أنسبُ بالتّوقيف على سوء شكرهم، وبمقام تعداد دلائل قدرته، وأفضالِهِ على النّاس؛ بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، فالجملةُ واقعةٌ مَوقِعَ التّعليل لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِى سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فبَيْنَ الجملتين شبه كمال الاتِّصال؛ أي: تسبَّبوا لأنفسهم بذلك العقاب؛ لأنّهم كفروا نعمة الله؛ إذ جعل لهم اللّيل والنّهار[2]. وهذا سبب الفصل بين الجملتين، فمن عظيم شأنه ومقتضى عبادته سبحانه أنْ جعَلَ السُّنن الكونيّة محافظةً على الحياة، دائرةً في مصلحة الإنسان، فجعل اللّيل سكنًا له، وجعل النّهار للتّمتّع بنعمة الإبصار، والسّير في الأرض، وابتغاء الفضل من الله؛ عملًا ورزقًا ومتاعًا وغيرها.

بلاغةُ الالتفات من التَّكلُّم إلى الغَيْبة:

ذكرُ النِّعَمِ والتَّحذيرُ من الاستكبار

قال الله تعالى في الآية السّابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِى﴾، ثمّ التَفَتَ هنا بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ من التّكلّم في ﴿عِبَادَتِى﴾ إلى الغيبة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾، وأفاد هذا الالتفاتُ التَّحوُّلَ إلى التّفكّر بعظيم شأن الله وعظيم فضله ونعمائه على النّاس الَّذين يستكبرون عن عبادته؛ إذ أخبر الله

(1) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3714.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183 - 184.

تعالى أنّه جعل اللّيل سكنًا والنّهار معاشًا، وبيّن عجز الآلهة الّتي تُعبَدُ من دون الله عن ذلك، وأنّه لا دليلَ لهم على عبادتها؛ فإنّها لا تملك شيئًا[1]. فحُقَّ عليهم أن يُدخلهم الله جهنّم بعد أن أنكروا الإيمان، واستكبروا عن عبادة الله، فجعلهم في غاية الذّلّ والهوان.

الموقعُ النَّحويُّ لِلَفْظِ الجلالةِ والاسم الموصول:

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾؛ اسمُ الجلالة فيه مبتدأٌ والموصولُ صفةٌ له ويكون الخبر قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وتكونُ جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ معترضةً. ويجوزُ أن يكون اسمُ الجلالة مبتدأً والموصولُ خبرًا[2]، وجملةُ ﴿ٱللَّـهُ ٱلَّذِى﴾ الآيةَ ... استئنافيَّةٌ لا محلّ لها[3]. فتقديم لفظ الجلالة في الجملة الاسميّة دليلٌ على عظيم قدرته وأفضاله سبحانه، وثباتِ تلك النّعم الّتي هي سننٌ كونيّة عظيمة، فجعلَها قائمةً إلى يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48].

دلالةُ اسمِ الجلالة على عظمةِ الله وثباتِ نِعَمِهِ الكونيَّة

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

وُصِفَ الاسمُ الأعظم في قوله: ﴿ٱللَّـهُ ٱلَّذِى﴾ بالموصولِ وصلته؛ إشارةً إلى بعض صفاته، وإيماءً إلى وجه الأمر بعبادته[4]. وقد ذكره هنا بصفته المعظَّمة فقال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فاستحقَّ سبحانه العبادةَ والتّعظيم؛ لأنَّه هو وحده القادر على الخلق والتّصوير والجعل والتّقدير.

بيانُ عظيمِ شأن الله في الخلق والتّقدير

نكتةُ المجيءِ باسم الجلالة بعدَ الرُّبوبيَّة في الآية السّابقة:

يجوزُ أن يكون اسمُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ الواردُ في هذه الآية بدلًا من ﴿رَبُّكُمُ﴾ في الآية السّابقة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، وفائدةُ ذلك:

استحقاقُ الطّاعة والعبادةِ لله بمقتضى الرّبوبيَّة والعبوديَّة

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 282 و5/ 341.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 184.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 266.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183.

بيانُ استحقاقِ اللّه تعالى أنْ يطاعَ بمقتضى الرّبوبيَّة والعبوديَّة، واستحقاقِه الطّاعةَ لصفات كماله الَّتي يجمعُها اسمُ الذّات، ولذلك لم يَذكُر مع ﴿رَبُّكُمُ﴾ شيئًا مِن نعمه ولا كمالاته؛ اجتزاءً بمقتضى حقّ الرّبوبيّة، وذكَرَ مع ﴿ٱللَّهُ﴾ بعضَ نِعَمِه وأفضاله وبعضَ صفاته؛ إلماحًا لوجهِ الأمر بعبادته[1].

بلاغةُ الإدماجِ في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾:

أفضالُ اللّه ووحدانيَّتُه في الخلق والإنعام

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ أدمَجَ[2] في التّذكير بالنّعمة استدلالًا على انفراده تعالى بالتّصرُّف بالخلق، والتّدبيرِ الَّذي هو لازمُ حقيقة الإلهيَّة[3].

ومِن لطيفِ الاستعمال الفنّيِّ للفعل والاسم قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فاستعمَلَ مع اللّيل الفعلَ ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ ومع النّهار الاسمَ ﴿مُبْصِرًا﴾ ولم يسوِّ بينهما، فلم يقل: (ساكنًا) و(مبصرًا)، ولا: (لِتَسْكُنوا فيهِ) و(لتبصروا فيه)؛ مع أنَّ الاستعمال الحقيقيَّ هو: (لتبصروا فيه)، فعدل عن الفعل إلى الاسم وعن الحقيقة إلى المجاز، فقدَّمَ أسلوبًا فريدًا في وصف الحقائقِ العلميَّة، أسهَمَ في تبسيطها والتَّعبير عنها بمزيَّةٍ فنّيَّةٍ عالية؛ فقال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ وذلك أنّ النّهار لا يُبصِرُ هو، بل يُبصِرُ من فيه، فجمع بينَ التّعبير الحقيقيّ والمجازيّ، ودلّ على المقصد الأوَّل من الآية وهو الدّلالة على النّعمةِ بأقرب طريق، وقدَّم حقائق علميَّةً عظيمة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183.

(2) الإدماج: قال ابن أبي الإصبع: هو أن يُدمِجَ المتكلم غرضًا في غرض أو بديعًا في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين أو أحد البديعين كقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: 70]، أدمجت المبالغة في المطابقة، لأنَّ انفراده تعالى بالحمد في الآخرة - وهي الوقت الَّذي لا يحمد فيه سواه - مبالغةٌ في الوقت بالانفراد بالحمد، وهو وإن خرج مَخرجَ المبالغة في الظاهر، فالأمر فيه حقيقةٌ في الباطن، فإنه رب الحمد والمنفرد به في الدّارين، انتهى ، يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 162.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 184.

فائدةُ العُدولِ إلى الاسميَّة في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾:

دقَّةُ ألفاظِ الآية في إبـراز النِّعم الإلهيَّة

أفادَ العدولُ إلى الاسميَّة في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ معنيين؛ **الأول:** أنّنا نبصرُ فيه، كما قيل: ليلٌ قائم؛ والمقصود: قائمٌ أهلُهُ. **والمعنى الآخرُ:** أنَّه جعَلَهُ مُبصِرًا أيضًا؛ يُبصِرُ أعمالَنا، ويكونُ شاهدًا علينا بالخير والشّرّ؛ فكأنَّ له عينين تُبصران، فهو يُبصِرُنا كما نُبصِرُ نحن فيه، وهذا من قبيل التَّشخيص، فجعله حيًّا بيننا. وهذا من جمال التّعبير القرآنيِّ وروعته.

وهذا ما أومَأ إليه صاحبُ الكشّاف في تفسير هذه الآية؛ إذ يتساءل: لِمَ قُرِنَ اللّيلُ بالمفعول له والنّهارُ بالحال؟ وهلّا كانا حالين أو مفعولين له فيراعى حقُّ المقابلة؟ ثم يجيبُ قائلًا: هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يؤدّي مؤدّى الآخَرِ، ولأنَّه لو قيل: (لتبصروا فيه) فاتتِ الفصاحةُ الَّتي في الإسناد المجازيِّ. ولو قيل: ساكنًا لم تتميَّزِ الحقيقةُ من المجاز؛ لأنَّ اللَّيل يجوز أن يوصف بالسُّكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليلٌ ساجٍ وساكنٌ؟ لا ريحَ فيه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿جَعَلَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّـوظـيـفُ اللُّغويُّ للفعل (جعل)

الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ﴾ فعلٌ ماضٍ بمعنى (خلَقَ)، والعربُ تفرِّقُ بين (جعل) إذا كانت بمعنى (خلق) أو لم تكن بمعناها، فإنْ كانت بمعنى (خلق) عدَّتْها إلى مفعولٍ واحد، وإذا لم تكن بمعنى (خلق) عدَّتْها إلى مفعولين، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزخرف: 3]. و(النّهارَ) عطفٌ عليه، ونُصِبَ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ على الحال[2].

معنى اللّام في ﴿لَكُمُ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ معناها الاختصاص والاستحقاق؛

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 184.
(2) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 30.

أي: يكونُ ما أوجدَهُ الله من هاتين الظّاهرتين (اللّيلِ والنّهارِ)، والسُّنَّتين الكونيَّتين العظيمتين، وما يندرجُ تحتَهما من نِعَمٍ عظيمة أخرى تتحرَّكُ وتوجد بوجود اللّيل والنّهار وتتابُعِهما مُحقِّقًا لِمصالحكم داعمًا لِما ترغبون تحقيقه، فقد اختصَّكم الله تعالى بهذه النّعم العظيمة، وهذا ما يقتضي التّفكّرَ بعظيم ما أنعم الله والشُّكرَ عليه.

اختصاصُ الله تعالى النّاسَ بالنِّعَمِ يوجِبُ شكرَهُ عليها

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة على المفعول:

في قولِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ قدَّمَ شِبهَ الجملةِ على المفعول به؛ للتَّأكيد على الاختصاص، ولفائدة الاهتمام، فالعربُ مِن شأنِها تقديمُ ما تهتمُّ به - وإنْ كان مُستحقًّا للتَّأخير - على غيرِهِ إظهارًا للاهتمام به، فهذه النِّعمُ العظيمة كلُّها جاءتْ لصالح الإنسانِ الَّذي هو خليفةُ الله في أرضه، وهذا ما يسمّيه العلماء اليومَ المبدأ الإنسانيَّ، وفي القرآن الكريم يسمّى مبدأ التَّسخير؛ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية: 13].

التَّسخيرُ الإلهيُّ للنِّعمِ مِن مظاهرِ الكرم

معنى (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾:

دلَّتْ (أل) التَّعريف في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ على الجنسِ، فالمرادُ عمومُ اللَّيل، فكلُّ ليلةٍ آيةٌ عظيمةٌ مسخَّرةٌ لكم حتّى قيامِ السّاعة.

نِعَمُ الله على عباده تَترى ما تتابعتِ اللَّيالي

معنى اللّام في ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾:

(اللّامُ) في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ للتَّعليل، وقيل: هي لامُ التّمكين، ومع هذا يجوزُ في اللّيل غيرُ السّكون. وإنَّما أفادَ الجَعْلُ هُنا وصفَ آيةٍ كونيّةٍ؛ إذ يرقُدُ عمومُ النّاس في اللّيل؛ للسُّكون وطلب الرّاحة.

بيانُ خاصّيَّةِ اللَّيلِ مِن تمكينِ النّاس من السُّكونِ فيه

وجهُ التَّعبيرِ بالفعل (تسكنوا) مضارعًا:

السُّكونُ في الآية يَحتَمِلُ "الرّاحةَ الظّاهريَّةَ بالنَّوم الَّذي هو الموتُ الأصغر، والرّاحةَ الحقيقيَّةَ بالعبادة الَّتي هي الحياةُ الدّائمة"[1].

اللَّيلُ راحةٌ للبدن وظيفيًّا وروحيًّا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 101.

ودلالةُ المضارعةِ فيه مِن مظاهرِ إتمام النّعمة ودوامِها بتجدُّدِ السُّكون مع دوام حالِ اللّيالي وِفاقَ التَّقديرِ الإلهيِّ على صورةٍ واحدة.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿فِيهِ﴾:

(في) في قوله تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾؛ ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ دلَّتْ على الإحاطة، وهو ما يمنحُ النّاسَ فرصةَ السَّكنِ عندَ حدوث اللَّيل، ولأنَّ السّكون يحتاج إلى مكان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النّحل: 80]، فصَوَّرَتِ الآيةُ اللَّيلَ كأنَّه هو المكانُ الَّذي يحيطُ بالنّاس ليحقِّقَ لهم السّكينةَ.

اللَّيلُ مثلُ بيتٍ تسكنُ فيه النّاسُ وتهدأُ مِن أعباء الحياة

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾:

في قولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾؛ عطَفَ (النّهارَ) على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، و ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ معطوفٌ على (مظلمًا) المقدَّرِ، فقد عطفت (الواوُ) معمولين على معمولين، وعاملُهما واحد، وتقدير الكلام: هو الَّذي جعل لكم اللّيل مظلمًا لتسكنوا فيه والنّهار مبصرًا لتتحرّكوا فيه[1]. والجمعُ بينهما بواو العطف إتمامٌ لصورةِ الزَّمانين اللَّذَينِ يقضي فيهما المرءُ حياتَه

اللَّيلُ والنَّهارُ ظرفان دائمان لسَكَنِ المرءِ ومعاشِه

معنى (أل) في ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾:

(أل) في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ جنسيَّةٌ؛ أي: جنسَ النّهار، فكلُّ نهار يكون مبصرًا لكم، تتحرّكون فيه وتبتغون العمل والتّحصيل. ودلَّتْ (أل) الجنس كذلك على ما يمكن محاكاته من قِبَلِ الإنسان في إضاءة البيوت والطّرق، فكان في ذلك محاكاةٌ علميَّةٌ لسنَّةٍ كونيَّةٍ، فما نراه اليومَ من اعتياد النّاس على إضاءة المدن والمساكن وغيرها ما هو إلّا تقليدٌ ومحاكاة لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾.

إنارةُ النَّهارِ مِن سننِ الله الكونيَّةِ الدّائمة

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ لفظَتَي ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و(النّهار):

اللّيلُ والنّهارُ تكوينان عظيمان، دالّان على عظيم قدرةِ خالقِهما

(1) الخرّاط، المُجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 442.

ومُنَظِّمِهما وجاعلِهما متعاقبَينِ، فنيطَتْ بهما أكثرُ مصالحِ هذا العالمِ ومصالحِ أهلِه.

اللَّيلُ والنّهارُ دلالةُ الميزانِ الكونيّ في تنظيم الحياة البشريّة

وبينَ اللّيل والنّهار في قوله: ﴿ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ طباقُ إيجابٍ، فائدتُهُ التّنويعُ في البيئة الّذي تحتاجُهُ الحياة النّامية؛ فمِن المصلحة سكونُ الإنسان في اللّيل لاسترداد النّشاطِ العصبيِّ الّذي يُعْييهِ عملُ الحواسِّ والجسد في النّهار، فيعودُ النّشاط إلى المجموع العصبيّ في الجسد كلّه وإلى الحواسِّ، ولولا ظلمةُ اللّيل لكان النّومُ غيرَ كامل فكان عَودُ النّشاطِ بطيئًا وواهنًا، ولعادَ على القوّة العصبيّة بالانحطاطِ والاضمحلالِ في أقرب وقت، فلم يتمتّع الإنسان بعمرٍ طويل. ولولا النّهارُ لَما تمكّن النّاس من الانتشار والسّعي كما ينبغي، فحاجة النّاس للضّياء ضروريّة، ولولا الضّياءُ لكانت تصرُّفات النّاس مضطربةً متخبِّطةً[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ مادّةً وصيغةً:

النّهارُ المبصرُ إشارةٌ علميّةٌ إلى فاعليّةِ الضّوءِ في عمليّةِ الإبصار

دلّ التّعبير بـ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ على إشارةٍ علميّة مهمّة؛ إذ كان النّاس يعتقدون أنّ رؤيةَ الأشياء تكمُنُ بخروج شعاعٍ من العين يسقطُ على الجسم فيراه الإنسان، حتّى جاء الحسنُ بن الهيثم فبرهَنَ على أنّ شعاع الضّوء ينعكس من الأجسام إلى العين فتتحقَّقُ الرُّؤية[2]، فقوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ دلَّ على أنّ الشّعاعَ المسبِّبَ للإبصار يكونُ بسببِ النّهار والنّور الّذي فيه، ولولا ذلك لتمكَّنَ الإنسانُ من الإبصار في الظّلام.

ثمَّ إنّه قال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾؛ ليدلَّ كذلك على عموم ذلك الضّياء، فيمكنُكَ أن ترى كلَّ شيء من حولك ما دمتَ في النّهار،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 185.

(2) ابن الهيثم، المناظر، المقالة الأولى: كيفية الإبصار بالجملة - الفصل السادس: كيفية الإبصار، ص: 53.

وهذا على خلاف اللّيل؛ إذ يمكنك رؤيةُ بعض الأجسام الَّتي يأتيها ضياءٌ طارئٌ ينعكسُ عليها.

و صيغةُ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ اسمُ فاعلٍ مُشتَقَّةٌ من الفعل (أبْصَرَ)، و(مُبْصِر) تدلُّ على الَّذي يرى أو يُلاحظ جيِّدًا.

وتفيدُ صيغةُ اسم الفاعل الدَّلالةَ على الثُّبوت، وهي ملائمةٌ لوصفِ السُّنَنِ الكونيّة الدّائمةِ كضوء النّهار وظلام اللّيل.

بلاغةُ المجاز في إسنادِ الإبصار إلى النّهار:

قولُهُ: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ معناه: يُبصَرُ فيه، كما تقول: نهارٌ صائمٌ، وليلٌ قائمٌ[1]. فهو من الإسناد المجازيِّ؛ لأنَّ الإبصارَ في الحقيقة لأهل النّهار[2]. فأسند الإبصار إلى النّهار على طريقة المجاز العقليّ لقوَّةِ الملابسة بين الأفعال وزمانها، فأسند إبصار النّاس إلى نفس النّهار؛ لأنّه زمنُ الإبصار، فعلاقةُ المجاز هي الزَّمانيَّة. والنَّهار كذلك سببُ بعضِ الإبصار، وسببُ كمالِ بعضٍ آخرَ منه[3]، وفيه مبالغةٌ، ولذلك عدَلَ به عن التّعليل إلى الحال فقال: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فلا يوازيه فضل أبدًا، وللإشعار به لم يقل: لمُفَضِّلٌ[4].

عمليَّةُ الإبصار في النَّهارِ مَنْفَذٌ مُهِمٌّ للنّشاط في الحياة

ذكر الجرجانيُّ في دلائل الإعجاز قوله: "إنَّما كان قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [يونس: 67] أفصَحَ مِن أصْلِه الَّذي هو قَوْلُنا: (والنّهار لِتُبْصِروا أنتُمْ فيه، أو مُبصِرًا أنتم فيه)؛ من أجْلِ أنَّه حدَثَ في حروفِ (مُبْصِر) - بأنْ جَعَلَ الفِعْلَ للنَّهارِ على سعَةِ الكلامِ - وصفٌ لم يكن"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 566.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 175.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 185.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 62.
(5) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 463.

بلاغةُ الاحتباكِ في المقابلة بين النِّعمتين:

الإيجازُ في بيان التَّكامُلِ بينَ نعمتَي اللَّيل والنَّهار

في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾؛ دلَّتِ المقابلةُ بينَ تعليلِ خلقِ اللَّيل بعلَّةِ سكونِ النّاس فيه، وبينَ خلقِ النَّهار مُسنَدًا إليه الإبصارُ على طريقةِ المجاز العقليِّ - فالمبصرون هم النّاسُ في النّهار - على احتباكٍ. ووجهُ "الاحتباك: حَذْفُ الظَّلام أوَّلًا؛ لكونِهِ ليس من النِّعَمِ المقصودة في أنفُسِها؛ لِما دلَّ عليه من الإبصارِ الَّذي هو المقصودُ من نعمةِ الضّياءِ المقصودِ في نفسه، وحَذْفُ الانتشارِ والتَّحرُّكِ؛ لأنَّه بعضُ ما ينشأُ عن نعمة الإبصار؛ لما دلَّ عليه من السُّكون الَّذي هو المقصودُ الأعظمُ من اللَّيل؛ للرّاحة لمَن أرادها، والعبادةِ لمَن اعتمَدَها واستزادَها"[1].

فيُفهَمُ من كليهما: أنَّ اللّيل ساكنٌ أيضًا كما أنَّ النَّهارَ مُبصِرٌ، وأنَّ النّهارَ خُلِقَ لينتشرَ النّاس ويَشتغِلوا فيه بمَصالحِهم كما أنَّ اللَّيلَ خُلِقَ ليسكنوا فيه؛ إذ المنَّة بهما سواءٌ، فهذا من بديع الإيجاز، مع ما فيه من تفنُّنٍ أسلوبَي الحقيقةِ والمجاز العقليِّ. ولم يعكسْ فيقلْ: جعَلَ لكم اللَّيلَ ساكنًا والنَّهارَ لتبصروا فيه، لئلّا تفوتَ صراحةُ المُراد من السُّكون؛ كي لا يُتوهَّمَ إسنادُ السُّكونِ إلى اللَّيلِ على سبيل الحقيقة، وأنَّ المرادَ شدَّةُ الظَّلام فيه، على حدِّ قولِهم: ليلٌ ساجٍ، لقلَّةِ الأصواتِ فيه[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾:

آيةُ الإبصارِ في النَّهار محلُّ تفخيم

أفادَ تنكيرُ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ التَّفخيمَ والتَّعظيمَ، فهي آيةٌ من آيات الله، يعيشُها النّاس ويستمتعون بنعمتها العظيمة، فهي سنَّةٌ كونيّةٌ عظيمة.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 101.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 185.

نكتةُ تقديمِ ذكرِ اللَّيل على النَّهار:

حـالـةُ عـمـومِ اللّيل في الكونِ بخلاف النّهار

ورد تقديمُ اللّيل على النّهار في القرآن الكريم مرّاتٍ عديدةً، مع تنوُّعِ سياقاتها، فتارةً يكون مع الجَعْلِ، وتارةً مع التّسبيح أو الاختلاف أو التّكوير؛ وما التّقديمُ إلّا لحقيقةٍ علميَّةٍ مهمَّة، مُفادُها: أنّ اللّيلَ عامٌّ والنّهارَ خاصٌّ، وأنَّ اللّيلَ شاملٌ كُلّيٌّ في هذا الكون، وأنَّ النّهارَ طارئٌ مؤقَّتٌ؛ فيُعرَفُ الوقتُ به.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾:

بيانُ أفضالِ الله على النّاس من خلال ما قدَّرَ ونظَّمَ من السُّنن الكونيّة

فُصلت جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عن الجملة السّابقة الَّتي تضمَّنت الحديث عن سُنَّتين كونيَّتين هما من أعظم أفضال الله على الإنسان، فقال مخاطبًا إيّاهم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، فكانت الجملتان خبريَّتين، وتناولتا موضوعًا واحدًا هو بيانُ نعم الله على النّاس، فكان بينَهما كمالُ الاتِّصال، ممّا اقتضى الفصلَ بينهما.

أو يقال: إنَّ جملةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تعليلٌ لجملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾[1]، فهي مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا أو بيانيًّا، وحينئذٍ يكونُ بين الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصال.

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّدات:

إنـكـارُ نِـعَـمِ المتفضِّلِ مَدْعاةٌ للتَّذكير بالتَّوكيد

تتابُعُ المؤكِّدات: ﴿إِنَّ﴾ و(اللّام) و(الجملةِ الاسميّة) في جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ يفيدُ أنّ المخاطبَ منكِرٌ أو شاكٌّ بمضمونِ الخبر، فهو خبرٌ إنكاريّ، وهو ما يُلقى إلى مخاطبٍ شاكٍّ في تصديقه، فيصبح من اللّازم توكيدُه بأكثرَ من مؤكِّد، فتزيدُ المؤكِّدات في الخبر بزيادةِ الإنكار لدى المخاطب. وإنكارُ فضلِ الله

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 266.

تعالى ونِعَمِه ههنا هو استكمالٌ لدائرةِ الجحود الابتدائيِّ بإنكارِ السّاعة والاستكبارِ عن عبادة الله، ونتيجةٌ طبيعيّةٌ لهما.

نكتةُ إظهارِ لفظ الجلالة في موضعِ إضمارِه:

تأكيدُ عظمةِ الله وفضلِه على النّاس

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أُظهِرَ لفظُ الجلالة في موضعِ إضماره؛ لنكتةِ المبالغة في بيانِ عظيمِ شأنِ الله وفضلِه على النّاس، وأنَّه وحده مَن يستحقُّ منهم توحيدَ الألوهيَّةِ والعبادةِ سبحانه.

فائدةُ ذكرِ (ذو) بمعنى (صاحب):

عظمةُ أفضالِ الله على النّاس وكثرتُها

معنى ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنَّه جعَلَ لهم نعمًا عظيمة لتدومَ الحياةُ[1]. فإدخالُ (ذو) هنا يدلّ على عِظَمِ فَضْله وكثرته[2]. ولم يقل: (لَمُتفضِّلٌ)، ولا: (لَمُفَضِّلٌ)، بل عدل إلى إضافة (ذو) إلى (فضل) فقال: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ ليأتيَ التّنكير المشعرُ بالتَّعظيم. وعدَلَ عن نحوِ: (له فضلٌ) إلى ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ لما يدلُّ عليه (ذو) من شرفِ ما يضاف هو إليه[3].

نكتةُ تنكيرِ ﴿فَضۡلٍ﴾:

أفضالُ الله على النّاس كثيرةٌ دائمة

وقوله سبحانه: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ بالتَّنكيرِ للإشعارِ بأنَّه فضلٌ لا تحيطُ به عبارةٌ أو وصف[4]. ولم يقل: لَمُفضِّلٌ أو لَمُتفضِّلٌ لأنَّ المراد تنكير الفضل وأنْ يُجعَلَ فضلًا لا يوازيه فضلٌ، وذلك إنَّما يكون بإضافةِ (ذو) إليه مُنكَّرًا[5]. فـ"التّنكيرُ للتّعظيم؛ لأنّ نعم الله تعالى عظيمة جليلة"[6]، وأفضالُه على النّاس لا تُعدّ ولا تُحصى، وهي عظيمة في جميع أحوال النّاس.

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 1/ 324.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 181.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 62، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.
(4) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3714.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 218.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.

نكتةُ تعديةِ الفضل بحرف الاستعلاء:

(على) في قوله: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ للاستعلاء؛ فالله تعالى قادرٌ على كلّ شيء، وهو المُهيمن على الأقدار والحياة سبحانه؛ من هنا أتى ذلك الاستعلاء بـ(على)، فهو قادر عليهم، وهو مُتفضّل عليهم في الوقت نفسه.

هيمنةُ الله بأفضالِه على النّاس وديمومةِ الحياة

وكذلك دخلت (على) الدّالّة على الاستعلاء تنبيهًا على معنى الظّهور والوضوح؛ لأنَّ الاستعلاءَ ظهورٌ وإبداء[1]، ونعمُ الله كذلك وخيراتُه باديةٌ ظاهرة لكلّ النّاس، تشهدها الأبصار وتدركها العقول، ولا ينكرها إلّا جاحدٌ مستكبر.

أفضالُ الله على النّاس ظاهرةٌ لا يُنكِرُها إلّا جاحد

الموقعُ النَّحويُّ لقولِهِ: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

(اللّامُ) هي المزحلقة، وعلامةُ الرّفع في (ذو) الواو؛ لأنّه من الأسماء الخمسة، و(ذو فضل) خبرُ ﴿إِنَّ﴾، وجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لا محلّ لها في حكم التّعليل[2]؛ لبيانِ النِّعَمِ الإلهيَّة؛ فكلُّها بفضل الله تعالى ومنِّهِ وكرمه على خلقه.

بلاغةُ التَّذييلِ في جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

ويجوزُ أن يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ "اعتراضًا هو كالتّذييلِ لجملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾؛ لأنَّ الفضل يشملُ جَعْلَ اللّيلِ والنّهار وغيرَ ذلك من النّعم، ولأنّ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى عمومِ المخاطبين بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ وغيرِهم من النّاس"[3].

التّأكيدُ على فضلِ الله وتعميمُ نِعَمِهِ على النّاس

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى

نِعَمُ الله تعالى عامَّةٌ للنّاس كافَّة

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 2/ 6.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير(بتصرف): 24/ 186.

ٱلنَّاسِ﴾ العمومُ المرادُ به الاستغراقُ؛ أي: (لذو فضل على كلِّ النّاس باختلاف اللَّيل والنَّهار وما يحتويان عليه من المنافع)[1]، فاللّه تعالى تفضّل بهذه النّعم على عموم النّاس، فلا فرق بين مؤمنٍ وغيره فيها؛ فهذه من النّعم العامّة الَّتي هي ضروريّةٌ لديمومةِ حياة النّاس في الأرض على الوجهِ الأفضلِ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ وفائدةُ الاستدراك:

أكـثرُ الـنّـاس يكفُرون النّعم

في قولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ الواوُ عاطفةٌ، وتُسمّى استدراكيَّةً؛ لاقترانِها بحرفِ الاستدراك (لكنَّ)[2]. وظاهرُ جملةِ الاستدراك أنَّها معطوفةٌ على جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ولولا أنَّ (لكنَّ) يكثرُ أنْ تقعَ بعد (واو) العطف؛ لكانت الجملةُ جديرةً بالفصل دون عطفٍ، فهذا العطفُ من باب التَّحليةِ اللَّفظيّة، وهذا الاستدراكُ الَّذي خُتمتِ به الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه يدلُّ على سؤالٍ مقدَّرٍ، فبينَ الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصال، ومن حقِّه الفصلُ لا الوصلُ، لكنْ ما سوَّغَ الوصلَ هو اقترانُ (لكنَّ) الاستدراكيَّةِ بالواو كثيرًا.

و"الاستدراكُ بـ(لكنَّ) ناشئٌ عن لازمِ ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الشَّأنَ أنْ يشكرَ النّاسُ ربَّهم على فضله، فكان أكثرُهم كافرًا بنعمه، وأيُّ كفرٍ للنّعمة أعظمُ من أن يتركوا عبادةَ خالقِهمُ المُتفضِّلِ عليهم، ويعبدوا ما لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًا؟"[3].

مُنتهى الجحودِ المـرورُ بـالأدلَّـةِ والآيـات مـعَ الإصـرارِ على الإنكار

وموقعُ الاستدراك الَّذي في جملةِ الفاصلة هو ما يُثيره توالي المؤكِّدات في جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾ في سياقِ تعدادِ نِعَمِهِ على الخلق كافَّةً، فكأنَّ سائلًا سأل: لِمَ أكَّدَ اللّه ثُبوتَ فضله على النّاس؟ فجاء الجوابُ: لأنَّ أكثرَ النّاس منكرون لهذه النِّعَمِ العظيمة، فلا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 101.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 1/ 331.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.

يشكرون مُنعِمَها ﷻ. والمعنى: ولكنَّ أكثر النّاس يمرّون بالأدلَّة والآيات وهم معرضون عن دلالتها، فلا يتفكَّرون بالنِّعم ولا يشكرون المُنعِمَ بها، لذلك نفى عنهم وصفَ الشّكر.

نوعُ الإضافة في ﴿أَكۡثَرَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

اختُلف في نوع إضافةِ اسم التَّفضيل لِما بعده: محضةٌ أم غيرُ محضة؟ والجمهورُ على أنَّها محضةٌ، فيكتسبُ اسم التَّفضيل التَّعريف أو التَّخصيص ممّا بعدَه[1].

وفي قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الإضافةُ محضةٌ على القول الرّاجح، فاكتسَبَ من ﴿ٱلنَّاسِ﴾ التَّعريف، والمعنى هو الدّلالة على الغالبيَّةِ عمومًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفضيل ﴿أَكۡثَرَ﴾:

يُعرف اسم (التّفضيل) بأنَّه: صفةٌ تؤخذ من المصدرِ؛ لتدلَّ على أنَّ شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخرِ فيها، فالتّعبيرُ بصيغة المفاضلة ﴿أَكۡثَرَ﴾ يَحمل دلالةَ مقارنةٍ بينَ شيئين أو أكثرَ، بحيث يُظهر أنَّ الشّيء الَّذي يُستخدم فيه ﴿أَكۡثَرَ﴾ يمتلك صفةً معيَّنةً بدرجةٍ أكبرَ أو بكثرةٍ مقارنةً بالآخرين.

النّاسُ صنفان شاكرٌ لله تعالى وهم الأقلّيَّة، وجاحدٌ لنعمه تعالى وهم الأكثريَّة

وفي هذه الآية الكريمة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ جعَلَ النّاسَ فريقين: فريقًا شاكرًا وهم الأقلُّ، وفريقًا غيرَ شاكرٍ أو جاحدًا لنعمة الله وهم الأكثرُ، فخرج بـ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الأقلُّ وهم المؤمنون؛ فإنَّهم أقلّ ولو أعجَبَ النّاسَ كثرةُ الخبيث[2].

نكتةُ نفي الشّكر عن الأكثريّة:

طبيعةُ البشر إنكارُ النّعمة

قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ بيانٌ للطَّبيعةِ البشريّة، وأنّ إنكار النّعمة وعدمَ شكرها هو من طبائع النّاس؛ إذ

(1) رضي الدين الأستراباذي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 247.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.

يغلبُ عليهم ذلك. وهذا من الظّلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34]؛ أي: عمومَ النّاس.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ونكتةُ إظهاره في موضع الإضمار:

تسجيلُ الكفران على النّاس بوجهٍ أصرحَ

المراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ عمومُهم؛ لأن (أل) فيه للجنس؛ أي: أنّ عموم النّاس يكفرون النّعمة ولا يشكرون المُنعم.

وفي وضْعِ الظّاهر مَوضِعَ المُضمَرِ في جملة الفاصلة فوائدُ؛ منها زيادةُ التّقرير والتّمكين[1]؛ إذ مُقتضى السّياقِ أن يُقال: (ولكنَّ أكثرَهم)، فلا يتكرَّرَ ذكرُ (النّاس)، ولكنّ في هذا التّكرير تخصيصٌ لهم بكفرانهم النّعمةَ، وأنّهم هم الَّذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: 66]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: 6]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34][2]. فتكرَّرَ لفظُ النّاس عند ذكر عدم الشّكر كما ذُكر عندَ التَّفضُّل عليهم، فسجَّلَ عليهم الكفرانَ بوجهٍ أصرحَ[3].

وراعى معنى الأكثرِ فجمَعَ ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الجَمْعَ أدلُّ على المرادِ وأقعدُ في التَّبكيت[4].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في إظهار ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وإضماره:

الإظهارُ والإضمارُ؛ ودلالاتُ التّوازن في التّعبير بين المعنى والمقام

في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ وُضِع الظّاهر موضع المُضمر[5]. فأظهَرَ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في موضع الإضمار في سورة المؤمن، وأضمَرَ في موضع الإظهار في سورة يونس، وهل كان جائزًا وقوعُ هذا مَوضِعَ ذاك؟ لأنَّ "كلَّ موضعٍ يَحتملُ الإضمارَ لقرب الذِّكْرِ ويَحتملُ الإظهارَ لتعظيم الأمر، وذكر أخصِّ الأسماء المقصود

(1) السيوطيّ، الإتقان: 3/ 244.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 529.
(5) السيوطيّ، الإتقان: 3/ 244.

بالتَّقريع والتّفنيد؛ فإنَّه يُحمل على ما يلائم الآياتِ المتقدِّمةَ له؛ ليكونَ قد جمع إلى صحَّةِ المعنى واللَّفظ مشاكلةَ ما قبلَهُ مِن الآي"[1].

فأمّا قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فمحمولٌ على الآيات الَّتي قبله، فأظهر ذكر النّاس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملائمة، وليس كذلك الأمر في سورة يونس ﷺ؛ لأنَّ الكلام هناك بني على الإضمار في الآي المتقدِّمة، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [يونس: 55]، فأضمَرَ ما أضاف إليه ﴿أَكۡثَرَ﴾، ثم انتهى إلى قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾؛ فاقتضى ما بني عليه الكلام في هذه الآيات أن يكون ما بعد الشّرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدَّمَهُ. هذا هو الرّاجح في سبب الإظهار والإضمار في الموضعين[2].

بيانُ المتشابهِ في استعمال الفعل المضارع المنفيّ:

المواضع الثّلاثة الَّتي جاء فيها ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57] وجاء فيها ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وجاء فيها ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ كان كلٌّ منها بمكانه، ولا يُتصوّر وضعُ أحدها موضعَ قرينِهِ؛ فكلُّ آية اقتضت بانسجامٍ ما خُتمت به.

فضل الله تعالى على النّاس يستلزم تأديةَ حقِّه بالشّكر

ففي الأولى قال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]، ثم نبّه على أن يُعلَمَ أنّ مَن قدَرَ على الأكبر قادر على الأصغر، وهذا موضعٌ يفتقر إلى العلم الَّذي نفاه عمَّن لم يقرّ به فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57].

(1) الخطيب الإسكافي، درة التّنزيل: 1/ 1128 - 1129.
(2) الخطيب الإسكافي، درة التّنزيل: 1/ 1130 - 1131.

وفي الثّانية قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فمن أنكر البعث فهو محتاج إلى الإيمان به، بعدَ علمه بأن القادر على خلق السّموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم.

وأمّا الأخيرةُ فقال فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ومَن كان للّهِ فضلٌ عليه فهو محتاج إلى أن يؤدّيَ حقّه بالشّكر، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1].

فوجهُ اختلاف المَنْفيّاتِ في المواضع الثّلاثة أنّه أتبَعَ كلَّ غرضٍ أُريدَ إثباتُهُ بما يناسب حالَ منكريه[2].

وجهُ التّعبير بالمضارع ﴿يَشْكُرُونَ﴾ ونكتةُ حذف متعلَّقِه:

تجدُّد عدم الشّكر لعميم النّعم دليلُ الإصرار على الجحود والكِبْر

صَوْغُ الفعلِ المنفيِّ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ مضارعًا في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على تجدُّدِ إنكارهم لنعم اللّه عليهم. وحُذِفَ مُتعلَّقُ الشّكر لنكتةِ بيانِ أنّهم لا يشكرون في عموم أحوالهم، فمهما أصابَهم من النّعم والأفضال الإلهيَّة فإنَّهم لا يشكرون اللّه تعالى على تلك النّعم؛ لضعفٍ في إيمانهم، أو لإنكارهم أنّها أفضالُ اللّه تعالى.

بلاغةُ التّذييل في جملة الفاصلة:

الآيةُ دعوةٌ للتّفكّرِ في أفضالِ اللّه وتذكيرِ النّاس بها

سياقُ الآيةِ الكريمة للتّذكير بنعمة اللّه تعالى على الخلق كما اقتضتْهُ لامُ التّعليل في قوله: ﴿لَكُمُ﴾، واقتضاه التّذييلُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[3].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العمل والجعل والخلق:

تحليلُ الفروق بين الجعل والعمل

العَمَل: هوَ إيجاد الأثر في الشَّيْء، والجعل: تَغْييرٌ بإيجاد الأثر

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/ 1133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 184.

فيهِ بِغَيْر ذَلِك، فتَقول: جعل الطّين خزفًا وجعل السّاكِن متحرِّكًا، وتقول: عمل الطّين خزفًا، والجعل أيْضًا يكون بِمَعْنى الإحداث، وهوَ قَوْله تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، وقَوله تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: 23]، ويجوز أن يُقال: إن ذَلِك يَقْتَضي أنّه جعلها على هَذِه الصّفة الَّتي هيَ عَلَيْها. كَما تَقول: جعلتُ الطّين خزفًا، وقد يَرِدُ على غير ذلك من المعاني[1]. والخلق في اللُّغَة: التّقدير، يُقال: خلقت الأديم إذا قدَّرتَهُ خُفًّا أو غَيره، وخلق الثَّوْب وأخلق لم يبْق[2].

ولمّا كان جعل اللَّيل سكنًا، والنَّهار مبصرًا بمعنى إحداثهما على هذه الهيئة ناسَبَ لفظ (الجعل) دون العمل أو التّقدير.

الشّكر والحمد:

اختلافُ الشّكرِ والحمد في القرآن والسّياق اللُّغويّ

الشّكر لا يكون إلّا على نعْمَة، والنعْمَة لا تكون إلّا لمَنْفَعَة، أو ما يُؤَدّي إلَى مَنْفَعَة؛ كالمرض يكون نعْمَة لِأَنَّهُ يُؤَدّي إلَى الانْتِفاع بعوض. والشّكر على النِّعْمَة سمّي شكرًا عَلَيْها وإن لم يكن يوازيها في القدر كشكر العَبْد لنعم اللّه عليه.

أمّا الحَمد فلا يكون إلّا على إحْسانٍ، واللّه حامِد لنَفسِهِ على إحسانه إلَى خلقه، فالحَمْدُ مضمَّنٌ بِالفِعْلِ[3].

ومن هنا ناسَبَ تعدادَ النّعم إيثارُ لفظ الشّكر وإنْ كان في سياق النّفي؛ فالمعنى: أكثر النّاس لا يشكرون نِعَمَ اللّه تعالى.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 36.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 36.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 50.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»